

التزعة التجديدية في الدرس النحوي عند "تمام حسان" ومرجعيتها التراثية فكرة "القرائن" المقالية" أُنموزجا

د.مراد قفي . gofimorad@gmail.com

قسم اللغة والأدب العربي، كلية الآداب واللغات، جامعة محمد بوضياف بالمسيلة، الجزائر
الترقيم الدولي: 1969 - ISSN 2335 - ترقيم الإلكتروني: 2602-506-X ISSN E.

الملخص:

The Modernist Tendency in the Grammatical Course in Tamam's Perspective and Its Heritage Reference. Case study: the Notion of "the Linguistic Context Indicators"

Abstract:

The Modernist Tendency in the Grammatical Course in Tamam's Perspective and Its Heritage Reference. Case study: the Notion of "the Linguistic Context Indicators"

The Arabic linguistic course-the grammatical course to be exact- was not supposed to be considered without a reference to the outputs of the contemporary linguistic thought. Hence, scientists expertized in the field have put great efforts and their trajectories range from some who aligned themselves with the heritage to some others who aligned themselves against it, whilst others just took a stance in between. In other words, getting inspired by the heritage, they have involved in a process of new prospects, and yet cautiously.

Dr. Tamam Hassan's study of what he had come to call "Verbal Indicators" has come to conclude an engaging process of a profound contemplation and a precise vision inside the grammatical and heritage corpus. realizing the function of linguistic understanding and the conveying of understanding.

Key Words: Arabic Grammar- Tamma Hassan- Verbal Indicators- Meaning

ما كان ينبغي أن يقف الدرس اللغوي العربي، النحوي منه بخاصة، اليوم بمنأى عن مخرجات الفكر اللغوي المعاصر، فكان سعي علمائه في ذلك شتى، بين مُنتصرٍ للتراث العربي ومُنتصرٍ عليه، وكان بعضٌ منهم ممن توسط المسألة، قد انبرى مواكبا الركب، مُستلهماً التراث في اعتزاز، مُستشرفاً الآفاق الجديدة في حذر.

فكانت دراسة د. تمام حسان لما أسماه "القرائن المقالية" خلاصة تأمل عميق ونظر دقيق في بطون المدونة النحوية التراثية، وكانت في الوقت نفسه نتاج مقارنة وصفية حديثة كان اختارها منهجاً لمشروعه الهام؛ حيث استطاع تلخيص القرائن اللفظية والمعنوية وتفريعها، مبيناً أنّ بهذه القرائن تتحقق وظيفة الفهم والإفهام اللغوية.

الكلمات المفتاحية: النحو العربي - تمام حسان - القرائن المقالية - المعنى

توطئة: تكاد حقيقة المعنى تلتصق بحقيقة الفكر، بالنظر إلى الطبيعة التجريدية التي تلتفها؛ فالفكر محاكاة ذهنية للبيئة بمختلف أنماطها، حيث يلجأ الإنسان في كل مستويات

التفكير تلك إلى استيعاب ما فكّر فيه، وسيكون ذلك بلا أدنى شك إلى اللغة التي يستودعها ما جال بخلده من نشاط فكري. فالمعنى إذن يأخذ خصيصتي الاستيعاب والاستقصاء، ذلك أنّ المكان الطبيعيّ الأول للمعنى إنّما هو العالم الخارجي. ((لأنه يُبرز العلائق المُطرّدة بين الأوضاع، والمعنى اللغويّ يجب أن يُنظر إليه في إطار هذه الصورة العامّة للعالم، عالم مليء بالمعلومات وأجسام موقّفة لالتقاط جزء من هذه المعلومات.))⁽¹⁾

هذا، و قد ثبت أنّ للمعاني النحوية الاستفادة من مختلف الأنماط التركيبية - لا ريب - أثرا بالغًا في وضوح المعنى الدلاليّ، بل إنّ استقامة النمط النحويّ المناسب باتت جزءًا لا يتجزأ من البنية الدلاليةّ للغة، ولا قيمة مرجوة للوحدات المعجمية ذات الدلالة الوضعية، ما لم تندرج ضمن دلالة التركيب وتعدّ صلتها بعلاقات النحو السياقية، ولعلّ هذا ما اصطُح عليه ب المعنى المقاليّ. (*)

وتكشف اللغة العربية عن نظام تركيبّي مخصوص إذا ما قورنت بغيرها من اللغات، ذلك أنّ هذا النظام يبدو أكثر ثباتًا وأقلّ تطوّرًا؛ ((فإذا كان من الممكن في لغات أخرى كالإنكليزية أو الفرنسية أو الروسية مثلًا أن تُقسّم إلى مراحل تختلف صوتيًا وتركيبًا ودلاليًا، وتصور كل مرحلة منها عصرًا مُحدّدًا بخصائصه الفكرية والثقافية المنعكسة من واقعه الاجتماعيّ المتّصل بنوع روابطه وعلاقاته الاقتصادية، فإنّ العربية الفصحى يجب أن تظلّ أكثر ثباتًا من كلّ تطوّر سياسيّ واجتماعيّ في مجال التركيب بخاصّة، حتى يُمكن الاطمئنان إلى بقاء النصّ القرآنيّ كما أريد، نصًا لغويًا معبرًا عن القيم الكلية للعقيدة الدينية.))⁽²⁾

و إنّ تيسير النحو العربيّ وتبسيط مسائله لم يكن وليد العصر، إنّما كان ممّا استتبعته الحاجة الحضارية وحركية التطوير والتجديد الطبيعية التي شهدها الدرس النحويّ العربيّ منذ عصور خلت، و في السياق ذلك تظهر جهود المبرّد، والرضيّ الأسترابادي، وابن مالك، وابن هشام، وابن مضاء القرطبيّ وسواهم. وإنّ من أهمّ العلماء المُحدّثين ممّن كانت لهم محاولات تجديدية باتجاه التيسير الدكتور إبراهيم مصطفى⁽³⁾، والدكتور إبراهيم أنيس⁽⁴⁾، والدكتور مهدي المخزومي⁽⁵⁾. والدكتور تمام حسان.

وإنّ نقدا كثيرا كان قد وُجّه من هؤلاء الدكاترة إلى النحاة القدامى، وقد كان بعضه واصلًا إلى حدّ التحامل والإسفاف وتهوين الجهد، داعين إلى إقامة درس نحويّ يقطع مع القديم ويعقد صلاته كلّها مع الدرس العربيّ الحديث، ولعلّ هذا الاتجاه هو ما كان يُشكّل تيارًا مناوئًا لما عُرف بـ " التقليديين" أو التراثيين.

لكنّ الدكتور تمام حسان كان ممّن توسّط هذه الأنظار المتضاربة، ليعمل على إعادة قراءة للمنجز اللغويّ العربيّ التراثيّ بأدوات علم اللغة المعاصر، فقد اهتمّ بقضايا الكلمة، مثلا، اهتماما خاصا في مشروعه البَنويّ⁽⁶⁾ الشهير، لمقاربة نظام العربية وفقا لثنائية الدالّ والمدلول (المعنى والمبنى) في مقابل ما اختطّه النحويّون القدامى من ثنائية الشكل والوظيفة فقال، مثلا: ((وأول ما نبدأ به أننا نجد التقسيم الذي جاء به النحاة بحاجة إلى إعادة النظر ومحاولة التعديل بإنشاء تقسيم آخر جديد مبنيّ على استخدام أكثر دقّة لاعتباريّ المبنى والمعنى.))⁽⁷⁾

هذا، وقد أقام د. تمام حسان منهجه اللغويّ وأرسى دعائم نظريّته على فكرة التعليق أو العلاقات السياقية، وهي فكرة النحو العربيّ المركزيّة، وقد استلهمها من اللغويّ البلاغيّ العربيّ الشهير عبد القاهر الجرجانيّ،⁽⁸⁾ ومُقتفياً أثر أستاذه الإنكليزيّ (فيرث)⁽⁹⁾ في الوقت نفسه، حيث جعل نظريّته القائمة على فكرة السياق محور كُتبه ودراساته اللغويّة جميعاً، محاولاً تفسير العلاقات النحويّة التي تعتمد القرائن المعنويّة واللفظيّة لتوضيح المعنى النحويّ والدلاليّ، فذكر أنّ فهم التعليق على وجهه كافٍ وحده للقضاء على (خرافة) العمل النحويّ والعوامل النحويّة؛ لأنّ التعليق يُحدّد بواسطة القرائن معاني الأبواب في السياق، ويفسّر العلاقات بينها على صورة أوفى وأفضل وأكثر نفعاً في التحليل اللغويّ لهذه المعاني الوظيفيّة النحويّة.⁽¹⁰⁾

هذا، وإنّه على الرغم من أنّ عملية تحليل بنية المعنى في شبكته العلائقيّة، أشقّ وأكثر استعصاءً على الوصف اللغويّ، ذلك أنّ ((القفز العقليّ من المبنى إلى المعنى يحتاج إلى قرائن معنويّة وأخرى لفظيّة، ويصدّق على كليهما اصطلاح "القرائن المقاليّة"))⁽¹¹⁾، إذ إنّ هذين النوعين من القرائن يُلمحان في "السياق المقاليّ"، ويُعدّان أسّ النظام السيميولوجيّ التركيبيّ للغة وأساسه.

1. القرائن المعنويّة:

القرينة المعنويّة، بتقدير د. تمام حسان⁽¹²⁾، هي تلك العلاقة التي تربط بين عناصر الجملة، كعلاقة الإسناد التي هي نسبة عنصر الحدث الذي في معنى الفعل أو الوصف إلى فاعله، أو واسطة وقوعه أو محلّ وقوعه، وذلك كالذي في: قام زيد، ومات عمرو، وانكسر الإناء، وزيد قائم، وعمرو هلك، والإناء متحطم أو مكسور، وعلاقة التعديّة تقوم بين الفعل ومفعوله الذي وقع عليه الحدث ((فالقرائن المعنويّة هي التي يُحكم بدلالاتها المعنى وصحّته.))⁽¹³⁾ وتتخصّص جملة القرائن هذه في شبكة علائقيّة سياقية تشتمل على:

1- الإسناد⁽¹⁴⁾ إنّ الإسناد بالمفهوم الذي استقرّ عليه نظرُ النحاة، يُعدّ الشكل المجرّد للمعنى النحويّ الأوّل، فهو بنية نحويّة مُنجزة وانعكاسٌ مجسّم لانعقاد المعنى بمقتضى

التركيب. وأقلّ ما تتكون منه الجملة لدى النحاة هو المُسند والمُسند إليه، فهذان هما نواة الجملة، وهذا ما يُمكن عدّه - تركيبياً- المكوّن الإِجباريّ، حيث يقول سيوييه: « هذا باب المسند والمسند إليه، وهما ما لا يُغني واحدٌ منهما عن الآخر، ولا يجد المتكلم منهما بدأً فمن ذلك الاسم المبتدأ والمبنيّ عليه وهو قولك: عبدُ الله أخوك، وهذا أخوك، ومثل ذلك: يذهب عبدُ الله، فلا بدُّ للفعل من الاسم كما لم يكن للاسم الأولُ بدُّ منه الآخرُ في الابتداء. »⁽¹⁵⁾

وإنّ في مثل هذا التعريف تصوّراً ثاقباً لهذه العلاقة التركيبية العماد، « لأنّ في هذا التعبير دلالة على فهم سيوييه المُبكر لهذا القانون اللغويّ؛ لأنّ الذي يُبني على الشيء لا بدّ أن يكون هذا الشيء أساساً له. »⁽¹⁶⁾ فكان "الإسناد" المنطلق الذي انبثقت منه الأبعاد الجمليّة عند النحاة القدامى، إذ هو يعني التّأليف والارتباط أيضاً⁽¹⁷⁾، ثم إنّ اهتمام النحاة بالإسناد مكّنه من معرفة تلك العلاقة الشبيهة بفكرة الإسناد الموجودة بين المفعولين في قوله تعالى: ﴿ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ ﴾ [البقرة/269] إذ يُقال: (مَنْ) هي الآخذ و(الحكمة) هي المأخوذ ومُراعاة الآخذية والمأخوذية⁽¹⁸⁾ من قبيل قرينة الإسناد تلك، ما يدلّ على أنّ الإسناد عند النحاة كان أداة تحليلية لعناصر التركيب.

لهذا فإنّ قرينة الإسناد - ومع أهميتها في التحليل النحويّ - تظلّ علاقة مفتوحة (مُطلقة)، تعمل الأبواب النحويّة مُجمعةً ومُنفردةً في الجملة على تقييدها وتوجيهها وفق النمط النحويّ المقصود. ويُميّز د. تمام حسان في تلك القرائن المعنويّة بين علاقيتين سياقيّتين مُتصلتين مباشرة بعلاقة الإسناد؛ أولاهما قرينة التخصيص، وثانيهما قرينة النسبة.

2- التخصيص

هو علاقة سياقية كبرى تتفرّع عنها علاقات معنويّة أخصّ منها « وإتّما سُميت هذه القرينة الكبرى قرينة التخصيص، لأنّ كلّ ما تفرّع عنها من القرائن قيودٌ على علاقة الإسناد، بمعنى أنّ هذه القرائن المعنويّة المنفرّعة عن التخصيص يعبر كلّ منها عن جهة خاصّة في فهم معنى الحدث الذي يُشير إليه الفعل والصفة. »⁽¹⁹⁾ و من علاقة التخصيص تتفرّع علاقات:

✓ **التعدية:** هي تخصيص للمعنى التركيبيّ، نحو: ضرب زيدٌ عمراً، إذ إنّ إسناد الضرب إلى زيد كان مخصّصاً بوقوعه على عمرو، أي إنّ وقوعه على (عمرو) كان قيوداً في إسناده إلى زيد.

✓ **الغائية:** هي تخصيص لعلاقة الإسناد أيضاً، فنحو: أتيتُ رغبةً في لقاءك، فإنّ فعل الإتيان أسند مُقيداً بسبب خاصّ، وهذا القيد هو الغائية. وتكون الغائية قرينة معنوية دالة على المفعول لأجله، أو على معنى المضارع إذا سبق بأدوات منها "اللام"، أو "كي"، أو "حتى".

✓ **المعية:** فهي قرينة معنوية يُفاد منها المصاحبة على غير طريق العطف، فهي اصطلاح مقصود على قرينة المفعول معه والمضارع بعد الواو، ومن هنا يتّضح أنّ نصب المضارع بعد الواو على المعية من قبيل نصب المفعول معه بعد الواو ذاتها.

✓ **الظرفية:** تُعدّ قرينة معنوية على إرادة معنى المفعول فيه، بيد أنّ الظرفية في هذا الصدد غير الظرفية التي يُفيدها حرف الجرّ (في) أو ما يأتي في معناه، لأنّ الظرفية للتخصيص؛ أي لتقييد زمن الإسناد أو مكانه.

✓ **التّحديد والتوكيد:** قرينة دالة على المفعول المطلق، من حيث تعزيز المعنى الإسنادي، وذلك لإيراد المصدر المشترك مع الفعل في مادّته، لأنّ المصدر هو اسم الحدث، وتكون التقوية بواسطة ذكره مُفردًا مُنوّناً على سبيل التأكيد، أو مُضافاً لمُعَيّن لإفادة النوع أيضاً، أو مُميزاً لعدد فيكون العددُ نفسه مفعولاً مُطلقاً والمصدرُ تمييزاً.

✓ **الملايسة:** فهي قرينة معنوية على إفادة معنى الحال بواسطة الاسم المنصوب أو الجملة مع الواو، أو من دونها، فإذا قُلّت: جاء زيدٌ راكباً. فالمعنى جاء زيدٌ ملايساً لحال الركوب وكذلك إذا قُلّت: جاء زيدٌ وهو يركبُ، فقد عبّرت عن الحال هنا بالجملة والواو، وتُسمّى هذه الواو حينذاك واو الحال، وواو الابتداء.⁽²⁰⁾

✓ **التفسير:** هو قرينة معنوية ويأتي في باب التمييز، والتفسير يكون لإيضاح أمر ما، قد يكون لإيضاح المعنى الإسنادي، نحو طابَ محمدٌ نفساً. وقد يأتي لمعنى التعدية مثل: زرعْتَ الأرضَ شجراً، وقد يأتي لإيضاح مقدار مُبهم، نحو اشتريت متريّن حريزاً، لذا كان التمييز تخصيصاً لعلاقة الإسناد أخيراً.

✓ **الإخراج:** من القرائن المعنوية أيضاً فتجده يرد في باب الاستثناء، فالمستثنى يخرج من علاقة الإسناد ومن دائرة المعنى الإسنادي، حيث تستفاد هذه القرينة من السياق اللغوي؛ فإذا قيل: جاء القوم إلاّ زيداً، فإنّه تمّ إسناد فعل المجيء إلى القوم وأخرج "زيداً" من هذا النطاق الإسنادي، ويكون المستثنى مُقيّداً بأداة الإخراج (إلا)، وفي الإخراج تقييد لعلاقة الإسناد وتخصيص له.

✓ **المخالفة:** يجعلها النحاة في باب الاختصاص، وهي أن تجدَ اسماً منصوباً سبقه ضمير (أنا) أو (نحن)، حيث قدّروا الاسم مفعولاً به لعامل محذوف، وهو فعل تقديره أخصّ، كقولهم: نحنُ العربُ نُكرم نُكرم الضيف، والمخالفة من قبيل القيم الخلفية، إذ تُعدّ قرينة معنوية دقيقة على الإعرابات المختلفة.

3- النسبة:

يعدّ د. تمّام حسان⁽²¹⁾ "النسبة" قرينة كبرى، تنضوي تحتها قرائن معنوية فرعية أخصّ، إذ هي قيد عامّ على علاقة الإسناد، أو ما وقع في نطاقها، ممّا يجعل علاقة الإسناد تلك نسبية، وقد فرّق ما بين النسبة والتخصيص، من حيث إنّ التخصيص يتّجه إلى تضيق المعنى وتدقيقه، في حين أنّ معنى النسبة إلحاق، ويدخل في دائرتها معاني حروف الجرّ ومعنى الإضافة.

وكان د. تمّام حسان قد أصلّ لقرينة النسبة في التراث النحويّ العربيّ بفكرة تعليق الجارّ والمجرور في السياق النحويّ، إذ إنّ عناية النحاة بما تُحقّقه تلك الحروف من معاني تركيبية في السياقات المتعدّدة إلّا دليل على قيمة تلك الحروف في ضبط معاني الجمل والتراكيب، في حين تبلغ درجة التعليق في الإضافة إلى حدّ، يُعدّ فيه المتضايقان (المُضاف والمُضاف إليه) كلمة واحدة، ويبقى الفرق ما بين نسبة الحرف ونسبة الإضافة، في كون الأولى تجعل علاقة الإسناد نسبية، أمّا الثانية فإنّها تكون بين المتضايقين تحديداً، لتُحقّق توليفاً تركيبياً فيما بينهما.

II. القرائن اللفظية

تُمثّل القرائن اللفظية عناصر استدلالية ذات طبيعة لفظية، يُستدلّ بها على الوظائف النحوية المختلفة، انتهاءً إلى تحصيلٍ لمعنى الجمل النحويّ والدلاليّ، وقد أحصاها د. تمّام حسان في ثماني قرائن:

1- العلامة الإعرابية:

تتمثّل حركات الإعراب⁽²²⁾ في أصوات المدّ القصيرة تلك، التي تلحق أواخر الكلمات، لتدلّ على وظيفة الكلمة في العبارة وعلاقتها بما عداها من عناصر الجملة، فحركات الإعراب الأصول في طبيعتها الصوتية أصوات لينٍ قصارٍ تلحق أواخر الكلم المعربة، وتتغيّر تبعاً لمواقعها في تركيب الكلام، وهي الضمة والفتحة والكسرة والسكون، وقد ظلّت اللغة العربية، ولا تزال، محتفظة بظاهرة الإعراب، إذ تعدّ من خصائصها الموغلة في القدم. وذهب (ابن فارس - 395 هـ) إلى إنّ الإعراب ((هو الفارق بين المعاني المتكافئة في اللفظ، وبه يُعرف الخبر الذي هو أصل الكلام، ولولاه ما مُيز فاعلٌ من مفعول، ولا مضافٌ من منعوت، ولا تعجّبٌ من استفهام، ولا صدرٌ من مصدر ولا نعتٌ من تأكيد.))⁽²³⁾

ويؤكّد مذهبه هذا في موضع آخر،⁽²⁴⁾ حيث يكون الإعراب - برأيه - الفارق الحاسم بين المعاني، فإذا قيل: ما أحسن زيد، لم يفرّق بين التعجّب والاستفهام والذمّ إلا بالإعراب، وكذلك إذا قيل: ضرب أخوك أخانا، ووجهك وجهٌ حرٌّ، ووجهك وجهٌ حرٌّ.

وَعَدَّ د. تَمَامَ حَسَانَ الإِعْرَابَ مِنْ قَرَائِنِ الْمَعْنَى النُّحَوِيِّ عَلَى الْمَعْنَى الدَّلَالِيَّةِ، إِذْ يُهْتَدَى إِلَى هَذَا الْمَعْنَى بِوَسْطَةِ الإِعْرَابِ مِنْ وَجْهَتَيْنِ⁽²⁵⁾؛ الْعَلَامَةُ الإِعْرَابِيَّةُ، وَالْمَعَاقِبَةُ، وَالْمَعَاقِبَةُ هِيَ صِلَاحِيَّةُ الْعَنْصَرِ اللُّغَوِيِّ أَنْ يَحِلَّ مَحَلَّ عَنْصَرٍ آخَرَ، وَيَشْمَلُ الإِعْرَابِيْنَ التَّقْدِيرِيَّ وَالْمَحَلِّيَّ. وَقَدْ قَالَ د. تَمَامَ حَسَانَ، وَأَعَادَ كَثِيرًا: ((إِنَّ الْعَلَامَةَ الإِعْرَابِيَّةَ بِمَفْرَدِهَا لَا تُعَيِّنُ عَلَى تَحْدِيدِ الْمَعْنَى، فَلَا قِيَمَةَ لَهَا بَدُونِ تَضَافِرِ الْقَرَائِنِ، وَهَذَا الْقَوْلُ صَادِقٌ فِي كُلِّ قَرِينَةٍ أُخْرَى بِمَفْرَدِهَا، سِوَاءً أَكَانَتْ مَعْنَوِيَّةً أَمْ لَفْظِيَّةً.))⁽²⁶⁾ وَأَشَارَ إِلَى جِهَادِ النُّحَوِيِّ قَطْرُبَ⁽²⁷⁾ فِي إِنْكَارِ أَنْ تَكُونَ الْعَرَبِيَّةُ قَدْ اعْتَمَدَتْ حَقِيقَةَ هَذِهِ الْعَلَامَاتِ. حَصْرًا وَاخْتِصَاصًا. فِي تَعْيِينِ الْمَعْنَى النُّحَوِيَّةِ.

إِنَّهُ عَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّ النُّحُوَّ الْعَرَبِيَّ قَدْ قَامَ عَلَى أُسَاسٍ مِنْ نَظَرِيَّةِ الْعَامِلِ، وَاسْتَحْكَمَتْ هَذِهِ النُّظَرِيَّةُ عَلَى أَدْبِيَّاتِ الْخَطَابِ النُّحَوِيِّ، إِذْ لَا تَكَادُ تَخْلُو مِنْ فِكْرَةِ الْعَامِلِ وَتَصَوُّرِهَا مَسْأَلَةً نَحْوِيَّةً وَاحِدَةً، ظَلَّ الْعَامِلُ عَنْصَرَ بِنَاءٍ تَتَعَالَقُ بِهِ عُنَاصِرُ الْجُمْلَةِ مُشْكَلَةً أَحَدَ أَنْظَمَةِ اللُّغَةِ، لِذَا فَهُوَ مِنْ دَاخِلِ الْجُمْلَةِ لَا مِنْ خَارِجِهَا، ذَلِكَ ((أَنَّ جَوْهَرَ نَظَرِيَّةِ الْعَامِلِ هُوَ مَا يُسَمَّى بِالْقَرَائِنِ النُّحَوِيَّةِ، وَأَنَّ الْعَامِلَ فِي نِقَائِهِ الْفَطْرِيِّ فَهَمَّ صَحِيحَ لِعَلَائِقِ التَّرْكِيبِ.))⁽²⁸⁾

2- الرُّتْبَةُ:

الرُّتْبَةُ قَرِينَةٌ نَحْوِيَّةٌ، تُعْنَى بِمَوْقِعِ الْكَلِمَةِ فِي تَرْتِيبِ الْكَلَامِ، لِلدَّلَالَةِ عَلَى وَظِيفَتِهَا النُّحَوِيَّةِ⁽²⁹⁾، حَيْثُ ((إِنَّهَا عِلَاقَةٌ بَيْنَ جَزَائِنِ مُرْتَبَيْنِ مِنْ أَجْزَاءِ السِّيَاقِ يَدُلُّ مَوْقِعَ كُلِّ مِنْهُمَا مِنَ الْآخِرِ عَلَى مَعْنَاهُ.))⁽³⁰⁾ كَمَا أَنَّهَا وَسِيلَةٌ أَسْلُوبِيَّةٌ وَوَسِيلَةٌ إِبْدَاعٍ، وَتَقْلِيْبُ عِبَارَةٍ، وَاسْتِجْلَابُ مَعْنَى أَدْبِيٍّ،⁽³¹⁾ وَقَدْ لَقِبَتْ اِهْتِمَامَ النُّحَوِيِّينَ - قَدَمَاءَ وَمُحَدِّثِينَ - إِذْ جَعَلَ النُّحَوِيُّونَ لِمَوَاقِعِ الْكَلَامِ رُتْبًا، بَعْضُهَا أَسْبَقَ مِنْ بَعْضٍ، فَتَحَدَّثُوا عَنْ رُتْبَةِ الْمَوْصُولِ وَصِلْتِهِ، وَ عَنِ رُتْبَةِ الْمُضَافِ وَالْمُضَافِ إِلَيْهِ، فَذَكَرُوا⁽³²⁾ أَنَّ رُتْبَةَ الْعَامِلِ قَبْلَ الْمَعْمُولِ فِيهِ، مَلْفُوظًا بِهِ أَوْ مُقَدَّرًا، وَيَبِينُوا أَنَّ رُتْبَةَ الْعَمْدَةِ قَبْلَ رُتْبَةِ الْفَضْلَةِ، وَرُتْبَةَ الْمَبْتَدِئِ قَبْلَ رُتْبَةِ الْخَبَرِ، وَهِيَ بِذَلِكَ تُعَيِّنُ عَلَى بَيَانِ الْمَعْنَى.

وَتَعَدُّ الرُّتْبَةُ عَوَضًا مِنَ الإِعْرَابِ فِي حَالِ انْعِدَامِهِ مَعَ الْمَبْنِيَّاتِ أَوْ مَعَ الْأَلْفَاظِ الَّتِي تَقَدَّرُ عَلَيْهَا الْحَرَكَةُ.⁽³³⁾ وَذَكَرَ د. تَمَامَ حَسَانَ أَنَّ الرُّتْبَةَ تَتَجَاذَبُ مَعَ الْمَبْنِيَّاتِ أَكْثَرَ مِمَّا تَتَجَاذَبُ مَعَ الْمُعْرَبَاتِ، وَإِنَّهُ يُوجَدُ فِي الْمُعْرَبَاتِ مَا هُوَ خَفِيٌّ الْقَرِينَةُ، فَيُعْتَمَدُ إِلَى الرُّتْبَةِ لِبَيَانِ الْمَعْنَى الْمَقْصُودِ كَالْمَقْصُورِ وَالْمَنْقُوصِ وَالْمُضَافِ إِلَى يَأِ الْمَتَكَلِّمِ. وَفِي بَيَانِ ذَلِكَ يُضْطَرُّ د. تَمَامَ إِلَى مِحَاكَاةِ الْقَدَامَى مُسْتَعِيرًا أَدَاةَ التَّعْلِيلِ، فَيُصْرِّحُ: ((وَمَعَ أَنِّي أَنْفَرُ مِنَ التَّصَدِّيِّ لِتَعْلِيلِ الظُّوَاهِرِ اللُّغَوِيَّةِ، أَجْدُنِي مَدْفُوعًا هُنَا إِلَى مُلَاحَظَةِ أَنَّ عَدَمَ وَجُودِ قَرِينَةِ الْعَلَامَةِ الإِعْرَابِيَّةِ فِي الْمَبْنِيَّاتِ، قَدْ جَنَحَ بِهَا إِلَى قَرِينَةِ الرُّتْبَةِ.))⁽³⁴⁾

لم يتءقق. ومن قبيل ذلك أن التوكيد اللفظي يكون بئرديد المؤكء بصيغته ولفظه، وأن التوكيد المعنوي يكون بصيغ وألفاظ بعينها، فلو أكء بغير ذلك لم يكن توكيدا.

4- المطابقة:

ويُراء بها التوافق⁽⁴⁰⁾ بين الكلمتين في الجملة من حيث العلامة الإعرابية، والشخص (التكلم أو الخطاب أو العيبة)، والعدد (الإفراد أو التثنية أو الجمع)، والنوع (التذكير والتأنيث)، والتعيين (التعريف والتكبير)، ويكون التوافق بعنصر منها أو أكثر، وقد أشار إلى شيء من قبيل ذلك سيبويه، بأن «المبتء لأبء له من أن يكون المبني عليه شيئا هو هو.»⁽⁴¹⁾ وعبر أيضا عن معنى المطابقة بقوله: «فء يوافق الشيء الشيء، ثم يخالفه لأته ليس مثله.»⁽⁴²⁾ وبذلك أيضا أرف ابن السراج: «المبهم اسم وصفته اسم، فهما اسمان بين أءهما الآخر، فقاما مقام اسم واحد ولا يجوز أن يفرقا، لا يثنى أءهما ويفرد الآخر، بل يجب أن يكون مناسبا له في توحيدته وتثنيته وجمعه، ليكون مطابقا له، لا يفصل أء منهما عن الآخر.»⁽⁴³⁾ و قد أشار ء. تمام ءسان⁽⁴⁴⁾ إلى أن مسرح المطابقة هو الصيغ الصرفية والضمائر، فلا مطابقة في الأدوات ولا في الظروف مثلا إلا النواسخ المنقولة عن الفعلية، فإن علاقتها السياقية تعتمد على قرينة المطابقة، وأما الخوالف فلا مطابقة فيها إلا ما يلحق نعم من تاء التأنيث.

5- الربط:

وهي قرينة لفظية تءل على اتصال أء المترابطين بالآخر، وتعد هذه القرينة السمة الغالبة في التركيب النءوي، وعليها المعول في مستوى التحليل، فهي التي تربط أجزاء السياق، وتءعله متماسكا في وحدة مترابطة، وءا جملة مءكمة الصياغة،⁽⁴⁵⁾ فللربط أهمية بالغة في توضيح المعنى النءوي، وأي إءلال به أو إهمال له يؤدي إلى شكل نءوي مفكك العرى، سيء السبك، غير مقبول من الناحيتين النءوية والدلالية.⁽⁴⁶⁾

وتعمل قرينة الربط هذه على إنعاش الءاكرة،⁽⁴⁷⁾ لاستعادة مءكور سابق بوساطة إءءى الوسائل اللفظية، التي تُعين على الوصول إلى هذه الغاية. ومن مظاهر هذه القرينة، بنظر ء. تمام ءسان،⁽⁴⁸⁾ ما يكون بين الموصول وصلته، والمبتء وخبره، والءال وصاحبها، والمنعوت ونعته، والقسم وءوابه، والشرط وءوابه وغير ذلك. ويتم الربط بالضمير العائد الذي تبءو فيه المطابقة مثلما يفهم منه الربط، أو بالءرف أو بإعادة اللفظ، أو بإعادة المعنى، أو باسم الإشارة، أو بءء، أو بءءول أء المترابطين في عموم الآخر.

6- التّضام:

لخص د. تمام حسان⁽⁴⁹⁾ مفهوم التّضام في وجهين؛ الأوّل رصف جملة ما، فتختلف طريقة منها عن الأخرى تقديمًا وتأخيرًا، وفصلاً ووصلاً وسواه، وأطلق على هذا الفرع من التّضام اصطلاح "التوارد" وهو بهذا المعنى أقرب إلى اهتمام دراسة الأساليب التركيبية البلاغية الجمالية منه إلى دراسة العلاقات النحوية والقرائن اللفظية.

أمّا الوجه الثاني، فهو أن يستلزم أحد العنصرين التحليليين النحويين عنصراً آخر، فيسمى التّضام حينذاك "التلازم"، أو يتنافى معه فلا يلتقي به، ويسمى هذا "التنافي". والملاحظ أن الأكثر في أمن اللبس أن يكون نتيجة الذكر، فيكون الذكر قرينة على المعنى المراد، ويتم ذلك الذكر على طريق الافتقار أحياناً، كما في تلازم الموصول وصلته، وتطلب كلا وكلتا مضافاً إليه معرفة مثلي، ويطلب العائد مرجعاً، والتلازم بين حرف الجرّ ومجروره، والمُبهم وتمييزه، وواو الحال وجملة الحال، وحرف العطف والمعطوف، والنواصب والجوازم والفعل المضارع، والجواب الذي لا يصلح شرطاً، والحرف الرابط وسواه.

والذكر والحذف يكونان فيما عدا ذلك من الضمائر وغيرها من أقسام الكلم جميعاً، على أن يكون الحذف دائماً مع وجود القرينة الدالة على المحذوف؛ فالمضاف والمضاف إليه يتطلب أحدهما الآخر، ويحذف كل منهما مع وجود القرينة، والمبتدأ والخبر متلازمان، ويحذف كل منهما بالقرينة.

إنّ الذكر قرينة لفظية، والحذف إنّما يكون بقرينة لفظية أيضاً، ولا يكون تقدير المحذوف إلاّ بمعونة هذه القرينة، وأهمّ القرائن الدالة على المحذوف هي الاستلزام وكلاهما من القرائن اللفظية الداخلة في مفهوم التّضام. والتنافي عكس التّضام، بوصفه قسيماً للتلازم، وهذا التنافي قرينة سلبية على المعنى يمكن بواسطتها أن يستبعد من المعنى أحد المتنافيين عند وجود الآخر، فإذا وُجدتْ "أد" استُبعد معنى الإضافة المحضة، وإذا وُجد التنوين استُبعد معنى الإضافة بقسميها، وإذا وُجد المُضمر استُبعد نعتُه.

7- الأداة:

تعدّ الأداة من القرائن الهامة في الاستعمال العربيّ المُستخدمة في التعليق، وكونُ الأدوات في عمومها من المبنيات فلا تظهر عليها العلامة الإعرابية، ومن ثمّ أصبحت كلها ذات رتبة شأنها في ذلك شأن المبنيات الأخرى التي تعينها الرتبة على الاستغناء عن الإعراب، وهذه الأدوات بتقدير د. تمام حسان⁽⁵⁰⁾ على نوعين، أحدهما الأدوات الداخلة على الجمل، والثاني الأدوات الداخلة على المُفردات.

فأمّا الداخلة منها على الجُمْل فرتبتهأ على وجه العموم الصدارة، وأمّا الداخلة على المفردات فرتبتهأ دائماً التّقدّم، نحو أدوات الجمل النواسخ جميعاً، وأدوات النفي، والتأكيد والاستفهام والنهي، والتّمّي والترجّي، والعرض والتحضيض، والقسم والشرط، والتعجّب والنداء، والأدوات الداخلة على المفردات نحو حروف الجرّ، والعطف والاستثناء والمعية، والتنفيس والتحقيق، والتعجّب والتقليل والابتداء، والنواصب والجوازم التي تجزم فعلاً واحداً، ولكلّ أداة من هذه الأدوات ضمائمها الخاصّة، فهي تتطلّب بعدها شيئاً بعينه، فتكون قرينة متعدّدة الجوانب الدلالية، حيث تدلّ بمعناها الوظيفي وبموقعها وبتضامها مع الكلمات الأخرى.

وهذا التعدّد في جوانب الدلالة بقرينة الأداة، يجعلها في التعليق النحويّ قرينة لفظية هامّة جداً. ومن أمثلة التعليق بقرينة الأداة نحو ما يُستفاد مثلاً من واو المعية من التّفريق بين المفعول به الذي تدلّ عليه أساساً قرينة التعدية، وبين المفعول معه وهو ما تدلّ عليه أساساً قرينتان، المعية، والواو.

8- النّغمة:

التنغيم من قرائن التعليق اللفظية في السياق، وهو الإطار الصوتي الذي تقال به الجملة في السياق، إذ إنّ الكلمات العربية تأتي على أمثلة صيغ مُحدّدة بمثابة القوالب المنطبقة بها. ولعلّ ثمة شبيهاً ما بين صيغ الكلمات الصّرفية وصيغ أخرى تنغيمية، تتّصل بمعاني الجملة النحوية؛ « فالجمل العربية تقع في صيغ وموازين تنغيمية هي هياكل من الأنساق النغمية ذات أشكال مُحدّدة. »⁽⁵¹⁾ فالهيكيل التنغيمي الذي تأتي به الجملة الاستفهامية مثلاً وجملة العرض، غير الهيكيل التنغيمي لجملة الإثبات، وهنّ يختلفن من حيث التنغيم عن الجملة المؤكّدة.

إنّ الصيغة التنغيمية مُحنى نغميّ خاصّ بالجملة يُسهّم في الكشف عن معناها النحويّ إسهام الصيغة الصّرفية على بيان المعنى الصّرفيّ للفعل المثال، ومائل د. تمام بين وظيفة التنغيم في الكلام بوظيفة التّرقيم في الكتابة، غير أنّ التنغيم أوضح من التّرقيم في الدلالة على المعنى الوظيفي للجملة.

خاتمة:

سلك د. تمام حسان بنظريته "تضافر القرائن" منهجاً وصفيّاً خالصاً، قائماً على الخلفية اللسانية السيميولوجية، ذلك أنّ التعويل على المعنى اللغويّ يبدأ بالوصف الدقيق للمبنى في عناصره الدالة لفظيةً كانت أو معنويةً، وقد باتت الجملة على قدر كبير من الأهمية، يستوجب قدراً كبيراً آخر من العناية والاهتمام درساً وتدريساً، ولا مناص من أن يتجاوز بها هذا الدرس حدود البحث في الظواهر الإعرابية إلى القرائن السياقية على المعنى اللغويّ؛ إذ إنّ لا مناص من فقه أحكام تصرّف تلك القرائن وأثرها في تحديد معاني الجمل الخاصّة.

- 14- آاء في اللسان: « سَنَدٌ: السَنَدُ: ما ارتفع من الأرض في قَبَلِ الجبل أو الوادي (...) وكلُّ شيء أسندت إليه شيئا، فهو مُسَنَدٌ وقد سُنِدَ إلى الشيء يُسَنَدُ سُنُودًا وإِسْتَدَّ وأَسْتَدَّ غيره (...) وأسند في العدو، اسْتَدَّ وجمد، وأسند الحديث رفعه الأزهرى، والمُسَنَدُ من الحديث ما إتصل إسناده حتى يُسند إلى النبي صلى الله عليه وسلم (...) والإسنادُ في الحديث رفعه إلى قائله» - ابن منظور، لسان العرب، آح: عبد السلام مآمد هارون، ط1. دار صادر، بيروت، لبنان، د/ت. مآدة (س ن د)، مجلد 3/ 220-221.
- 15- سيويه، الكتاب، آح: عبد السلام مآمد هارون، ط1. دار الجبل، بيروت، لبنان، د/ت. 23/1.
- 16- عبده الراجحي، دروس في المآاهب النآوية، ط2. دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، 1911. ص33.
- 17- يُنظر: الأشموني، شرح الأشموني على ألفية ابن مالك، آح: مآمد محي الدين عبد الحميد، ط2. مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، 1939. 9/1. و. الصبان، حاشية الصبان (شرح الأشموني على ألفية ابن مالك)، آح: طه عبد الرؤوف سعيد، د/ط. المكتبة التوفيقية، القاهرة، مصر، د/ت. 59/1.
- 18- يُنظر: آمام آسان، اللغة العربية معناها ومبناها، ص194.
- 19- نفسه، ص195.
- 20- يُنظر: نفسه، ص198.
- 21- يُنظر: نفسه، ص201.
- 22- يُنظر: علي عبد الواحد وافي، فقه اللغة، ط7. دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة، مصر، د/ت. ص210.
- 23- ابن فارس، الصاحبى في فقه اللغة ومساآلها وسنن العرب في كلامها، آح: أحمد آسن بسآ، ط1. دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1997. ص43.
- 24- يُنظر: نفسه، ص35-143.
- 25- آمام آسان، الخلاصة النآوية، ط1. عالم الكتب، القاهرة، مصر، 2000. ص34.
- 26- آمام آسان، اللغة العربية معناها ومبناها، ص207.
- 27- انفرد قطرب (مآمد بن المستير - 206 هـ) من أوائل القدماء، بالآآاه الرافض لدالية الإعراب، آيآ ذهب إلى أن الحركات الإعرابية وُآدت في الكلام لوصول الكلمات بعضها ببعض في الكلام. يُنظر: الزجاجى، الإيضاح في علل النحو، ص70-71. - و انسآ مع تصوّره ذا مذهب ابن مضاء القرطبي (أحمد بن عبد الرحمن 592- هـ) من نآاة الأندلس، من آلال كتابه الشهير "الرد على النآاة".
- 28- مآمد آماسة، العلامة الإعرابية في الجملة بين القديم والحديث، د/ط. دار الفكر العربي، القاهرة، مصر، 1983. ص171.
- 29- يُنظر: فاضل الساقى، أقسام الكلام العربي، (من آيآ الشكل والوظيفة)، د/ط. مكتبة الخانآي، القاهرة، مصر، 1977. ص186.
- 30- آمام آسان، اللغة العربية معناها ومبناها، ص209.
- 31- يُنظر: آمام آسان، البيان في روائع القرآن، ص91.
- 32- يُنظر مثالا: ابن السراج، الأصول في النحو، آح: عبد الآسين الفآلى، ط3. مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، 1996. 93/1.

- 33- يُنظر: تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، ص206. و محمد علي، المعنى وظلال المعنى، (أنظمة الدلالة في العربية)، ط2. دار المدار الإسلامي، بيروت، لبنان، 2007. ص330.
- 34- نفسه، ص 208.
- 35- نفسه، ص 210.
- 36- ابن جني، الخصائص، تح: محمد علي النجار، د/ط. دار الكتب المصرية- المكتبة العلمية، مصر، د/ت. 98/3.
- 37- يُنظر: تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، ص210.
- 38- "مباني التقسيم" من الاصطلاحات التي اشتقها د. تمام حسان في إطار نظريته حول أنظمة اللغة العربية القائمة على أساس المعنى والمبنى كليهما. يُنظر: تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، ص123.
- 39- يُنظر: تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، ص210.
- 40- يُنظر: محمد علي، المعنى وظلال المعنى، ص336.
- 41- سيوييه، الكتاب، 127/2.
- 42- نفسه، 128/2.
- 43- ابن السراج، الأصول في النحو، 33/2.
- 44- يُنظر: تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، ص211.
- 45- تمام حسان، الخلاصة النحوية، ص88.
- 46- يُنظر: نفسه، ص88. و محمد علي، المعنى وظلال المعنى، ص337.
- 47- يُنظر: تمام حسان، البيان في روائع القرآن، ص109.
- 48- يُنظر: تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، ص213.
- 49- يُنظر: نفسه، ص216.
- 50- يُنظر: نفسه، ص224.
- 51- نفسه، ص226.